مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا المجلد: 4 العدد01 جانفي 2021 ص ص: 157-171
ر ت م د (ISSN): 2602-618X /ر ت م د إ (E-ISSN): 2710-8031

المرأة المسلمة في فكر مالك بن نبي:
عرضٌ في رحاب أفكارٍ أُخَر

Muslim woman in the thought of Malek BENNABI:
Présentation in the scope of other ideas

مصطفى عبيد♦
جامعة محمد بوضياف، المسيلة، mostafaabid28@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/01/06 **تاريخ القبول:** 2021/01/10 **تاريخ النشر:** 2021/01/16

الملخص باللغة العربية:

يهدف هذه المقال إلى معالجة قضية من بين القضايا الهامة في التاريخ الاجتماعي للأمم. ويهمنا هنا المجتمع المسلم وقضية المرأة المسلمة فيه. كيف نفهمها؟ وما مكانتها ودورها في مجتمعها؟ وكيف تعمل على تحقيق تلك المكانة وذلك الدور ... وهي القضية التي ناقشها مالك بن نبي في بعض كتاباته. ولا سيما شروط النهضة، وبين الرشاد والتيه، والمسلم في عالم الاقتصاد، ودور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، وندوات ميزاب... كما ناقشها مفكرون آخرون من أمثال قاسم أمين، وخاصة في كتابه تحرير المرأة، وكذا عباس محمود العقاد في كتابه: المرأة في القرآن. ولذا فقد حاولنا جاهدين أن نصل إلى استخلاص أفكار مالك بن نبي باعتباره مفكرا جزائريا ساهم في الفكر التوعوي والحضاري للأمة. وعرض تلك الأفكار أمام أفكار مفكرين آخرين يشهد لهم بالبحث في مجال المرأة، حتى نخرج بالطرح السديد تجاه موضوع المرأة. والذي ختم فيه مالك بن نبي آراءه بالدعوة إلى إجماع المختصّين في كل العلوم التي لها علاقة بالمرأة، والخروج بقاعدة عمل تكون دستور فهم المجتمع المسلم للمرأة فيه وتوعيتها، وتوعية المجتمع بدورها ورسالتها، حتى يتسنى لها تحقيق الصلاح في المجتمع، ويتسنى للمجتمع الاستفادة منها كطرف فاعل فيه، وليس مجرد مِلكٍ للرجل تابعة له، مقصاة من مختلف أدوارها الحياتية. هذا الطرح الذي اختلف فيه واتفق مع المفكرين الآخرين وهو ما سنعمل على توضيحه في متن المقال.

♦ المؤلف المرسل

الكلمات المفتاحية: المرأة، المجتمع المسلم، مالك بن نبي، تحرير المرأة، الحضارة.

Abstract: This article addresses one of the most important issues in the nations' social history. It focuses on Muslims' community, i.e. Muslim women. It tries to give insights on how the issue of Muslim women is understood? What are their position and role in these communities? And what do they supposed to do to achieve these position and role? This has been handled by Malek Bennabi in some of his writings: renaissance's conditions, between right and being lost, Muslim in the world of economic, The Muslim's role and Message in the Last third of the Twentieth Century and Mizab Seminars. These issues have been also discussed by other thinkers such as Qassim Amin in his book Women's Liberation, and Abbas Mahmud Al-A'ggad in his book Women in the Quran. We will try to deduce Malek Bennabi's ideas as an Algerian thinker who contributed on the educational and civilizational thought of the nation and to compare his ideas with those of well-known thinkers to get insights on this issue. Malek Bennabi concluded his viewpoints by calling for the gathering of the specialists on all women's related sciences to establish a base for the Muslim's community to understand women, educating them, enlightening the community by their role so that they can participate effectively in their community, and not to be treated as man's dependent beings and excluded from different aspects of life. This viewpoint is the focus of this article.

Keywords: Women, Muslims' community, Malek BENNABI, Women's Liberation, Civilization.

مقدمة:

تعتبر هذه المساهمة محاولة في التاريخ الاجتماعي، إذ يعتبر موضوع المرأة في أي مجتمع من المجتمعات موضوعا هامّا لمكانتها كفرد فيه. وتعكس نظرة المجتمع لها، مستوى الوعي فيه، ومستوى التحرر أو الالتزام أو الانغلاق. كما يعتبرها المفكرون المهتمون بشأنها أساس تقدم المجتمع ورقيّ المدنية والحضارة به أو انحطاطها. وقد حاولنا في هذه الورقة تقديم نظرة المفكر الجزائري مالك بن نبي (1905 – 1973 م) وهو المفكر الذي حمل هموم أمّته ووطنه، داعيا إلى التّمسك بالثّقافة وتفعيلها لتحقيق الفعل

الحضاري. ورأينا ألاّ نكتفي بعرض أفكاره، لأنّ الاكتفاء بعرضها يجعلها –في تقديرنا- فكرة جافة. فحاولنا قدر الإمكان عرضها في رحاب أفكار أُخَرٍ لمفكرين أعلام تناولوا هذا الموضوع وكان لهم إسهام فيه. ألا وهو قاسم أمين بصفته ملقب بمحرر المرأة، وعباس محمود العقاد بسبب نظرته الملتزمة عموما بالطرح الإسلامي وقوة النقد. ولذا أردنا ان نعالج إشكالية المرأة في المجتمع المسلم، من حيث : مكانتها، دورها، فعلها الحضاري، رأي المفكرين في اشتغالها بالوظيفة وتوليها المناصب القيادية... وهي الأفكار التي شكلت عناصر المقال ومحاوره. وهدفنا في ذلك كله هو استخلاص نظرة مالك بن نبي خصوصا ومناقشتها في ضوء آراء المفكرين المذكورين، حتى نساهم في اطلاع القارئ على أهمية هذا الموضوع، والأفكار الواردة فيه. وأن نساهم في تقديم وعي حضاريّ له ولمجتمعاتنا من أجل تحقيق الفهم الحضاري لدور الأمة. ولِمَ لا المساهمة في تقديم تفسير حضاريّ لكثير من أحداث التاريخ.

1- النساء شقائق الرجال:

المرأة المسلمة في فكر مالك بن نبي جزء من المجتمع، فلم ينظر إليها منفصلة أبدا عن مجتمعها كفرد منه خادمة له، ساهرة في أداء واجباتها تجاهه بغية تحقيق الصلاح في المجتمع الإسلامي.[1] والصلاحية عند مالك بن نبي هي نتيجة للفعل الراقي المستمد من الفكرة الصحيحة، المتمثلة في إرشادات الوحي المتعلقة برسالة الإنسان المسلم كخليفة لله على أرضه. وبذلك يعطي مالك بن نبي للمرأة المسلمة مفهوما مخالفا لما هو سائد في عموم المجتمعات الإسلامية، التي وإن كانت مازالت تستمد أعرافها من الوحي، ولا تزال قيمها وعاداتها وتقاليدها مستمدة من ديننا الحنيف. إلا أنها وبفعل ما طرأ على العالم الإسلامي من ضعف، وما لحق بمفاهيمه في إقامة الحياة من شوائب، صارت المرأة فيه مجرد ظل للرجل وأداة لإقامة مختلف مظاهر الحياة من جهة، أو صارت ندّا له في تقليد غربي أعمى من جهة أخرى. ولذا دعاها ابن نبي إلى تبوّأ مقامها الحقيقي في نظره، وهو المقام الذي -حسبه- يرفع شأنها، إلى حد اعتبارها أساس قيام المدنية و"تقدم المجتمع وتحديد مستقبله وحضارته".[2]

1- مالك بن نبي، في مهب المعركة، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر ، دمشق، 2002، ص 97.

2- مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي، دار الفكر، دمشق، 1986، ص 116. وكذلك: نور الدين عتر، ماذا عن المرأة؟ اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق – بيروت، ط 03، 2003، ص 228.

ومعروف أن فلسفة مالك بن نبي كلها مبنية على مشكلتي الحضارة والثقافة، ويهمّنا هنا علاقتهما بالمرأة. فرأى أن المرأة كلما زادت ثقافتها زاد مستوى وعيها وترتبت عنه سلوكات حضارية راقية، تتجاوز فيها المرأة تلك النظرة الدونية المتعارف عليها في مجتمعاتنا الإسلامية الذكورية، إلى أن تكون طرفا فاعلا –وفق مبدأ الفاعلية عند مالك بن نبي- بكل ما يتطلّبه ذلك من مساهمتها في إخراج مجتمعها المتخلف في إطار ما سمّاه بن نبي: العمل الإنقاذي من أجل تحقيق الأمن الاجتماعي. وهو المبدأ الذي قال عنه أنه يتحقق بتظافر جهود الرجل والمرأة. فمتطلبات "العمل الإنقاذي ترتكز على أمن المجتمع، وهذا يتطلب وحدة أفراده ووحدة سلوك أفراده، بمعنى ألا يتصرّف أحد دون أن يكون تصرفه مطابقا لسلامة المجتمع كله".[3]

ولئن رأى مالك بن نبي ذلك، فلأنّ منطلقه هو ضرورة فاعلية الفرد المسلم، وأن المرأة ماهي إلا فرد من أفراده، مؤمنا بنظرته الحضارية ومنهجه السّنني بأن الله سبحانه وتعالى لا يمكّن للناس على حسب أمانيهم ولا آمالهم، وإنما بمقدار فاعليتهم في مجتمعاتهم والتزامهم بتطبيق الأفكار الصالحة على أرض الواقع. وهو هنا يقصد المرأة كما الرّجل على حد سواء. ومن ذلك أن هذه الأفكار الصالحة هي المستمدة عنده من الفكرة الصحيحة ألا وهي الدين الإسلامي. شرط أن تتحول أفكار الدّين وإرشاداته ومضامين نصوص الوحي في ذهن المرأة، من مجرد أفكار إلى تجسيد فعليّ فعّال على أرض الواقع. حتى تستطيع تحقيق التغيير في الأنفس وآفاق الكون المسخّر للإنسان. أما بالنسبة للمجتمع، أن تتحول تلك المضامين إلى أفكار سامية تجاه المرأة، يؤمن فيها بما جاء في الحديث الشريف " إنّما النّساءُ شقائقُ الرجال"[4] لا تفضيل بينهما إلا بما فضّل الله بعضهم على بعض، وفق الطبيعة البيولوجية والاستعدادات النفسية.

ومن هذا المنطلق، دعا ابن نبي المرأة المسلمة إلى ضرورة التمسك بالفكرة الصحيحة وتطبيقها تطبيقا صالحا سواء على مستوى المفاهيم أو السلوكات. وأن الفهم الصالح السليم لا يكون إلا بتصفية الذهن من كل ما لحق به من رواسب وشوائب بسبب ضعف الحضارة الإسلامية وجمود العقل المسلم. حتى إذا صفا الذهن رأى الأمور على صوابها، مثلما حدث في عهد النهضة الأوربية خلال القرن الثالث عشر الميلادي، حيث استيقظت أوربا ورأت الحياة على طبيعتها فبدأ التقدّم الأدبي، وما لحقه من تطور انتهى إلى تقدم علميّ في منتصف القرن الثامن عشر.

3- مالك بن نبي، مجالس دمشق، دار الفكر، دمشق، 2006، ص 140.

4- محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مج 06، القسم 01، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض ط01، 1996، ص ص 860 -863. (الحديث رقم 2863)

ولسنا هنا ندعو المرأة المسلمة إلى أن تتّبع خطى المرأة الغربيّة على عصر النهضة. لا، بل وذلك يتناقض مع رأي ابن نبي نفسه. وإنّما المراد التعبير عنه هنا هو: صفاء الفكر الأوربي في تلك المرحلة من صناعة عقل الإنسان الأوربي. الذي نستأنس في وصفه هنا بما جاء به هيغل في قوله: "الانتقال من حالة التوحش الطبيعية إلى مستوى النظام والقانون. خلال هذه المرحلة كان لابد من إنشاء الدول. وكان على أولئك الذين أنشأوا هذه الدول أن يستعملوا القوة والعنف لإلزام الناس بطاعة القانون. قبل أن يصلوا إلى درجة كافية من التقدّم العقلي تجعلهم يلزمون النظام والقانون من تلقاء أنفسهم ... فيصلوا بذلك إلى الحرية. في حين لا يستطيع بعضهم إدراكها فيظلّوا عبيد الجهل".[5] فصفاء الذهن يصل بالإنسان إلى الحرية التي تجعل كلّ سلوكياته مضبوطة بها. فإذا وصلت المرأة المسلمة إلى هذا، قامت برسالتها في مجتمعها وفق ما يمليه عليها عقلها الصافي الذي يستمد قيمه من ديننا الحنيف، وعملت على تبوّأ مكانتها بما يضمن كرامتها وعزّها كشقّ للرجل وسند له، وليس تابعا له أو ظلا.

هذا مثال أوّل، ولكن الأهم هنا والأوضح هو مثلما حدث في مثال راق مع البعثة النبوية، حين ركز النّبي (ص) على مجال العقيدة التي صفّت عقل الفرد المسلم، فصار يرى الحقيقة تامة. فكان التّوحيد الخالص الذي هو تعبير عن صفاء الذهن. فصار المسلم يعبد الله عن حرية مطلقة. وصارت العقيدة تؤكد قيمة الحرية. وصار الإسلام فعلا يعني الخضوع والطاعة لله تعالى طواعية. والخلاصة في هذا هي أن مالك بن نبي رأى أن العقل الجمعي للمجتمع إذا صفا يرى "النّساء شقائق الرجال" لا علوّ عنهنّ ولا احتقار، لا استعباد ولا حرية طائشة. وأن عقل المرأة إذا صفا، فسيرى الحقيقة كما هي، وهي أنها (المرأة) فرد فعّال في المجتمع مثلها مثل الرجل. وأنّ دورها هو انقاذ مجتمعها إن كان متخلفا والمساهمة في تقدمه ورقيّه إن كان متقدما. وأن حرّيتها ودورها إنما يتحققان وفق الفكرة الصحيحة التي هي شرع الله تعالى، فلا ترى حرّيتها في ما لم يأذن به الله تعالى. ولا ترى حريتها إلا في بناء مجتمعها، وليس في تدميره. لا سياسيّا ولا أخلاقيّا ... فتعمل كفرد مسلم مع الرجل على "تحريك الطاقات المعطّلة في المسلم المعاصر وشحذ همته واستعادة عافيته، وإدراك رسالته ومسؤوليته، وتحرير معاييره التي أسسها له الوحي مما لحق بها من اجتهادات البشر، وما تراكم عليها من آثار الغزو الثقافيّ والتّحكم الفكريّ".[6]

5- حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون، دار المعارف، القاهرة، 1984، ص 16.

6- بدران بن مسعود بن الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري، أنموذج مالك بني نبي، كتاب الأمة، ط 01، وزارة الأوقاف، قطر، 1999، ص 13، 14. من مقدمة الكتاب لعمر عبيد حسنة.

2- إشكالية مساواة المرأة بالرجل:

رأى مالك بن نبي أن المرأة والرجل عنصران منفصلان متكاملان يشكّلان باتحادهما سيرورة المجتمع وتكاثره. وهو هنا يرفض أي مقارنة أو تسوية بينهما. ولذا أطلق عليهما مصطلح "الآحاد المزدوجة". أي أن الواحد فيهما لا يكتمل إلا بالثاني. وأن المجتمع لا يكون إلا بهما معا. وفي ذلك قال: "نحن لا نساوي بين المرأة والرجل، بل نعتبر أن الرجل وجه للإنسانية والمرأة وجهها الآخر. ونرى في طبيعتهما تكاملا مقصودا ووظيفة موحدة، هي التي يستمر بها النوع البشريّ. ولو لم تكن المرأة لما كان النوع البشري. وإذن لانعدمت بذلك بعض الفضائل التي نراها ممثّلة في المرأة أكثر مما هي ممثّلة في الرجل". وقال :" إنّ للإنسانيّة وجهين، أحدهما المرأة وثانيهما الرجل، ولا يمكن للإنسانية أن تبقى ولا أن تظهر بمظهرها الحقيقي في التاريخ، وتشيد وتعمل ما تعمل إلا بهاتين الحقيقتين: الرجل والمرأة إذا انصهرا في حقيقة واحدة هي الأسرة".[7]

من هذا المنطلق، دعا مالك بن نبي إلى تصفية العقل المسلم من مختلف الشوائب ورواسب الأمراض المتفشية فيه بفعل مرحلة الانحطاط التي مر بها العالم الإسلامي. حتى يستطيع رأي الحقيقة كما هي. الحقيقة التي تصبح جليّة في المجتمع "النّساء شقائق الرّجال" أي أنّها نصفه ومكمّله وليس ملكه ومتاعه.

ورغم ما شاع بين الناس، وحتى في كتابات مالك بن نبي، من أن طرحه في موضوع المرأة يتناقض مع طرح قاسم أمين، الذي يصنّفه بعض الدّارسين على أنه محرّر المرأة. إلاّ أنهما يتّفقان في كثير من الأفكار، ويختلفان في أخرى. ففي الوقت الذي دعا فيه مالك بن نبي إلى تصفية ذهن المرأة من مختلف الشوائب ... دعا قاسم أمين —هو الآخر- إلى ضرورة تثقيف المرأة وتوعيتها. ورَبَطَ ذلك بتطوّر العقل الذي يؤدي —حسبه دوما- إلى تغيّر في العادات والآداب، وهو ما يترتّب عنه تغير في السّلوك لدى المرأة. وقد ذهب قاسم أمين إلى أبعد من ذلك، معتبرا أن الدّين كدين لا يغيّر من أفكار الشعوب ولا من سلوكياتها في الحياة، ما لم تتغيّر العقول البشرية فيها. وهذا المعنى هو الذي مثّلنا له سابقا بدور العقيدة كأداة تصفية للذهن، وليس فقط كأداة توحيد. لأنّنا نرى هنا أن التّوحيد نتيجة صفاء الذهن. وهو حرية اختيار وليس إجبار. والسبب في أنه توحيد عن حرية وليس عن إجبار، هو صفاء ذهن المسلم الذي وصل إلى أن يرى الحقيقة ماثلة أمامه وهي أنّ الله واحد يستحق التوحيد في كل شيء. فكذلك إذا وعت المرأة المسلمة عن طريق وسائل

7- مالك بن نبي، ندوات ميزاب، تقديم محمد بابا عمي، منشورات كتابك، الجزائر، 2014، ص 42، 43. وكذلك محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، دار الشروق، د.ت.، ص 06.

الوعي كالتّعليم مثلا، وعن طريق أدوات ووسائل الثقافة، سواء عند قاسم أمين أو كما يراها مالك بن نبي، فسيتغير سلوكها. فيصبح هذا التغيّر وهذا التغيير بمحض إرادتها، وعن حرّيّة تامة. وليس مجرد انصياع دون برهان أو دليل. وقد قال قاسم أمين في نتيجة هذا الصفاء: "لو كان لدين ما سلطة على العوائد (العادات) لكانت المرأة المسلمة اليوم في مقدمة نساء الأرض".[8] ولم يكن هنا ينتقص من أمر الدّين، وإنّما كان يبيّن أهميّة التّغيير على مستوى العقول والأذهان. لصناعة أولي الألباب والنُّهى. من الرجال كما النّساء.

ومن أجل صناعة هذا الذّهن الواعي للمرأة، رأى قاسم أمين أن تعليم المرأة ليس له علاقة بالوظيفة كشرط، وإنما كلما زاد تعلم المرأة تفتّح ذهنها، واتجهت نحو الآراء السّليمة، وتجاوزت الخرافات والأباطيل وطرحتها جانبا.[9]

3- حرّيّة المرأة بين التّحرير والتّوريط:

رأى مالك بن نبي أنّ الدعوة إلى تحرر المرأة بالطريقة التي نادى بها بعض المفكرين في الوطن العربي والإسلامي هو توريط للمرأة المسلمة وليس تحريرا لها. حيث قال عن قاسم أمين: "أقول إنه (قاسم أمين) ورّط المرأة وورّط قضيّة بناتنا وأخواتنا وورّط النسوة المسلمات المؤمنات في اتجاه جديد غريب عن ذهنيّتنا وأذواقنا وتقاليدنا وعن فقهنا وكرامتنا".[10]

والملاحظ أن الدّارس لكتابات قاسم أمين في موضوع المرأة المسلمة، لا يجدها قد ورّطت المرأة ذلك التّوريط الذي يفهم من كلام مالك بن نبي، بل ولا يكاد يختلف مع مالك بن نبي اختلافا بيّنا في موضوع التّغيير في ذهن المرأة، وسلوكها، ودورها في المجتمع. فقد اعتبر قاسم أمين أنّ المرأة كالرجل كلاهما أحد طرفي المجتمع، يتحمّلان مسؤولياتهما تجاهه. وهذا هو نفسه رأي مالك بن نبي. مع اختلاف فقط من حيث دور المرأة في بعض القضايا كالشغل مثلا، والذي نراه في نقطة أخرى من هذا المقال. فكما سجّل مالك بن نبي أنّ التغيير لن يحصل على الفرد دفعة واحدة، وأنه تغيّر تدريجي لن يصل المرء إليه إلا بتغييرات على مستوى الذّهن والنّفس مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.[11] فكذلك قاسم أمين، اعتبر أن التّغيير لن يحصل على الفرد (ويقصد هنا المرأة والرجل على حد سواء) في فترة وجيزة "إنّي لست ممّن يطمع

8- قاسم أمين، تحرير المرأة، مؤسسة هنداوي، القاهرة، 2012، ص 12.
9- نفسه، ص 18.
10- مالك بن نبي، ندوات ميزاب، مصدر سابق، ص 40.
11- سورة الرعد، رواية ورش عن نافع، من الآية، 12.

في تحقيق آماله في وقت قريب. لأن تحويل النّفوس إلى وجهة الكمال في شؤونها مما لا يسهل تحقيقه ... وكلّ تغيير يحدث في أمة من الأمم وتبدو ثمراته في أحوالها، فهو ليس بالأمر البسيط. وإنما هو ضرب من ضروب التغيير تحصل بالتدريج في نفس كل واحد شيئا فشيئا ثم تسري من الأفراد إلى مجموع الأمة. فيظهر التّغيير في حال ذلك المجموع نشأة أخرى للأمة".[12]

وفي ردّ مالك بن نبي عن دعاة تحرير المرأة قال: يقولون: "أنتم تهضمون حق المرأة وتسلبونها إياه وهي في نظرنا تساوي الرجل، ونحن نقول لهم: هذه المساواة هي ضمن المسائل التي تهضم المرأة في حقوقها، ونؤكد لهم أنّ هذه التسوية بالرجل هي التي تضيع من المرأة –والأخص المسلمة-كل ما تفضل به الإسلام عليها".[13]

يرى مالك بن نبي أن الدعوة إلى تحرير المرأة ماهي إلا نظرة ساقطة ممن تأثروا بالواقع الغربي، الواقع الذي فقد خصوصياته الثقافيّة والنّفسيّة في عصر القوة عند من سمّاه محور القوة، محور العلم، محور الحضارة. فتخلّت بذلك الشعوب الغربية عن خصائص قيمها الثقافية الموروثة. ويشير ابن نبي هنا إلى ظهور الأدب الوجودي المتأثر بالفلسفة الوجودية، والذي كان -حسبه- مظهرا من مظاهر انحلال عرى المجتمع الغربي وتخليه عن قيمه وخصوصياته المذكورة. سواء في إسكندنافية من خلال فلسفة كجارد بالدانمارك أو بألمانيا مع هايدغر أو بفرنسا مع سارتر .

ويرى ابن نبي أن ذلك التّخلّي، وبفعل نظرية الغالب والمغلوب والقابلية للاستعمار عند الفرد المسلم في عصرنا هذا، انتقل إلينا في شكل غزو ثقافيّ. هذا الانسلاخ الثقافي المتمظهر هنا في الدعوة إلى تحرر المرأة. ويطرح مالك بن نبي هنا وجهة نظره المتمثلة في أنّه إذا كان تفسير الفلاسفة الغربيين لذلك تفسيرا وجوديا، فإننا "نرى فيه رد فعل أدبيّ على شعور غامض لفقدان المسوّغات التي تحرّكت ودارت عليها عجلة التّاريخ طيلة القرون الماضية في أوربا".[14]

وفي تفسير مالك بن نبي لدوافع دعاة حرّيّة المرأة. رأى أنّ دافعهم كان دوما متمثّلا في الغريزة الجنسية. وأنّهم في حقيقة أمرهم لم ينظروا إلى المرأة إلاّ بنظرة جنسيّة لا شعوريّة تعكس وجهة نظر تحليل فرويد. ولكنّنا نجد أن قاسم أمين مثلا ينفي ذلك نفيا

12- قاسم أمين، مصدر سابق، ص 08.

13- مالك بن نبي، ندوات ميزاب، مصدر سابق، ص 42.

14- مالك بن نبي، دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق، 1991، ص 15.

قاطعا، ويتضح ذلك من فكرته ومن مختلف ألفاظه التي نستدلّ بها هنا. فقال: "لو بحثنا عن السبب الذي قد يحمل تلك المرأة المسكينة التي تبذل نفسها في ظلام اللّيل لأول طالب –وما أكبر هذه المذلة على المرأة- لوجدناه في الأغلب شدة الحاجة إلى زهيد من الذهب والفضة. وقلّما كان الباعث على ذلك الميلُ إلى تحصيل اللذة".[15] فلو نركزّ على ألفاظه وجمله الموظفة في هذه الفقرة لاستخلصنا أنه لا يبرّر لموقفه تجاه تحرير المرأة. ولكنه مقتنع بأن الفقر فعلا كان السّبب، وليس الدافع الجنسي. وأنه رفع صوته عاليا بأن الرّذيلة هي مهانة للمرأة. وأوصاف مثل "المرأة المسكينة"، و "في ظلام الليل لأول طالب" كلها جمل تمقت فعلا الدافع الجنسي وترفضه. وبالتالي نختلف هنا مع طرح مالك بن نبي الذي يعتبر دعاة تحرير المرأة كانت دوافعهم جنسية بحتة. كما أن قاسم أمين ربط ذلك ربطا متينا بالدّين فقال: "... وبالجملة، فليس هناك في أحكام الدّيانة الإسلاميّة ولا فيما ترمي إليه من مقاصدها ما يمكن أن ينسب إليه انحطاط المرأة. بل الأمر بالعكس فإنها أكسبتها مقاما رفيعا في الهيئة الاجتماعية".[16]

ولكن لابد ان نشير هنا إلى أن مالك بن نبي قد اعتبر أيضا بعض من أرادوا سجن المرأة هم أيضا تصرّفوا بدافع الغريزة الجنسيّة المتمثلة في غيرة الذكر على أنثاه. ولذلك أصرّ على ضرورة التخلص من هذه الخلفيات عند مناقشة موضوع قضية المرأة. وان مناقشة قضيتها لابد ان يتمّ في تصوّر ذهنيّ صافٍ، لا هدف من ورائه ولا دافع له إلا خدمة المجتمع وإصلاحه. ولا يكون ذلك إلا في اعتبار المرأة شق الرجل، مثلما الرجل شقه أيضا. وهذا ما جاء به ديننا الحنيف في حديث الرسول (ص): "إنما النّساءُ شقائقُ الرّجال". وهنا تكمن كرامة المرأة وسموّها، ولا تكمن أبدا في التّحرر المزعوم.[17]

وفي حقيقة الأمر، أن هذا الطرح لا يختلف فيه مالك بن نبي مع قاسم أمين مثلا، هذا الأخير الذي اعتبر سَجْنَ المرأة في بيتها هو قمة النّظرة الدّونيّة للمرأة من قبل المجتمع، فقال: "... من احتقار المرأة أن يسجنها (الرجل) في منزل ويفتخر بأنها لا تخرج منه إلا محمولة على النّعش إلى القبر، من احتقار المرأة أن يعلن الرجال أنّ النّساء لسن محلا للثّقة والأمانة، من احتقار المرأة أن يحال بينها وبين الحياة العامّة والعمل في أي شيء يتعلق بها. فليس لها رأي في الأعمال، ولا فكر في المشارب، ولا ذوق في الفنون، ولا قدم في المنافع العامّة، ولا مقام في الاعتقادات الدّينيّة، وليس لها فضيلة وطنيّة ولا شعور ملّي."

15- قاسم أمين، مصدر سابق، ص 19.

16- نفسه، ص 13.

17- مالك بن نبي، شروط النهضة، مصدر سابق، ص 115.

ولعل الرّأي الوسط هنا بين مالك بن نبي في دفاعه عن المرأة المسلمة والتي –من وجهة نظره- يرى أن تلعب دورها كفرد في المجتمع، ولكن بعيدا عن كل شبهات شهوات الرجال، وبين من يسمّيهم مالك بن نبي دعاة تحرير المرأة، وعلى رأسهم قاسم أمين، الذين يرى فيهم استباحة المرأة وتوريطها، وليس تحريرها. وإن كان هذا الأخير يرى نفسه بريئا من هذا الوصف، كما أن أفكاره في كتاباته توحي بذلك أيضا. فإنّنا نجد التّوفيق بينهما في رأي عباس محمود العقاد، الذي رأى احتجاب المرأة كقيمة أخلاقيّة ليس معناه عدم ظهورها أمام الرّجال البتّة. لأنه لو كان الأمر كذلك لما طلب الوحي من المسلمين غضّ البصر. فغضّ البصر –في رأيه- دليل على خروج المرأة، وعدم إبقاء النّساء في بيتوهن. وإلا لما كان هناك غضّ البصر، ولما عفا الإسلام عن الظاهر من المرأة كالوجه والكفين، لمشقة ذلك عنها في حياتها. خاصة وأنه يشير إلى أن المرأة على العهد الإسلامي الأول كانت تحضر الجمعة، وتزاول التّجارة، وتشهد القتال، وتباشر الأعمال التي تقتضيها مصالحها العامة... وفي ذلك قال وهو يتكلم عن الحجاب والاحتجاب: "...لأنّ الأمر بغض الأبصار لا يكون مع إخفاء النساء وحبسهن وراء جدران البيوت وتحريم الخروج عليهنّ لمزاولة الشؤون التي تباح لهنّ".[18]

والملاحظ أن عباس محمود العقاد وقاسم أمين يتّفقان هنا على خلاف مالك بن نبي، فقد رفضا أن يكون القصد القرآنيّ في قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أنّه أمر بإبقاء المرأة المسلمة في بيتها وحبسها فيه. وإنّما ذلك لا يعني -حسبهما- المرأة المسلمة بالعموم المطلق، بل هو مقتصر على نساء النّبي وفق ما بدأت به الآيات الكريمة.[19] فعند العقاد "لا حجاب إذن في الإسلام بمعنى الحبس والحجر والمهانة، ولا عائق فيه لحرية المرأة، حيث تجب الحرية وتقضى المصلحة، وإنما هو الحجاب مانع الغواية والتبرج والفضول، وحافظ الحرمات وآداب العفة والحياء".[20] وبحفظ هذه الحرمات والآداب تحفظ المرأة المسلمة أسرتها، ذلك أن أهم طريق عمل عليه المنصِّرون (وليس المبشّرون) لضرب الأسرة المسلمة، هو ضرب المرأة المسلمة. حيث قالت المنصِّرة " (آنا ميلجان): ليس هناك طريق لهدم الإسلام أقصر مسافة من تعليم بنات المسلمين في مدارس المسلمين الخاصة" وقالت أيضا: "... إن القضاء على الإسلام يبدأ من هذه المدارس التي أنشئت

18- عباس محمود العقاد، المرأة في القرآن، مؤسسة هنداوي، القاهرة، مصر، 2012، ص 62. ولابد أن نوضّح هنا أنّنا نعرض آراء المفكّرين في هذه المسائل، تاركين الأحكام الفقهية للقارئ.

19- الآيات الكريمة التي أشارت إلى نساء النبي عليه الصلاة والسلام، هي الآيات: من 30 إلى 34 من سورة الأحزاب، رواية ورش عن نافع.

20- نفسه، ص 62.

خصيصا لهذه الغاية. والتي تستهدف صياغة المرأة المسلمة على النمط الغربي الذي تختفي فيه كلمة: الحرام، والحياء، والفضيلة" ... ثم تقول: "ليس هناك طريق لهدم الإسلام أقصر مسافة ... من خروج المرأة المسلمة سافرة متبرجة"".[21]

4- رفض مالك بن نبي تولّي المرأة مسؤوليات قياديّة:

سجّل مالك بن نبي بكل أسف بساطة المرأة المسلمة المنجذبة وراء دعاة التحرر والمعجبة بالتقليد الغربي[22]، معتبرا أنّ الحضارة الغربية أساءت للمرأة حين دعتها إلى تزعّم المشهد القيادي، واقتحام عالم العمل بمختلف أوجهه، والوظيفة والتمسك بالتحرر في صراع مع الرجل. مفسرا ذلك على أنّه نتيجة عدم اهتمام الثقافة الغربية بالجانب الحضاريّ في التّاريخ. واصفا هذه الدعوة بأنها دعوة إذلال للمرأة "إننا سنرى الحضارة التي تطبعها عبقريّة الأنثى ستنتهي عندما تصبح المرأة "فارسة (omazone) "ويصبح فيها الرّجل مخنّثا. وهي تنتهي إلى فجور وميوعة وانحلال".[23] والفارسة عنده هنا هي المرأة المترجلة التي تلعب أدوار البطولة في مجتمعها.

وحين يفقد مجتمع من المجتمعات هويّته الثّقافيّة فحينها يفقد صواب سيره "وعندها فإنّ من الطّبيعي أنّ من لا يجد سندا في مسيرته التّاريخيّة سيقع في حيرة وتيه وقلق. وهذا ما يفسر لنا ما نراه اليوم من حيرة قائمة فعلا في النّفوس والأرواح. فإذا ما اجتمعت هذه الأشياء فعلا في نفس بشريّة، فعندها يمكن أن نتصوّر ما تولده من دوافع سلبيّة. فإذا ما فقد مجتمع ما مسوغاته (والمرأة فرد أساسي فيه)، ولم يستطع تعويضها بالطرق المشروعة في محاولات مبذولة، عندها يعتريه القلق ويعتريه التّيه وتعتريه الحيرة".[24]

5- عمل المرأة في الوظائف المختلفة:

يرى مالك بن نبي أن الأصوات المنادية بتحرير المرأة من خلال إيجاد منصب عمل لها، كلّه من سبيل تدمير المرأة واستغلالها، وليس تحريرها. حيث يقول: "أما بالنّسبة لمستعبدي المرأة ومستغلّيها الذين يطالبون باستخدامها ويقولون بأنّها ذات سواعد ...فلما لا نشغلها؟ فهل هذا منطق صحيح؟ إن الذين يتكلّمون بهذا الكلام يخطئهم الواقع من

21- محمد إبراهيم سليم، نساء حول الرسول صلى الله عليه وسلم، مكتبة ابن سينا، القاهرة، 1990، ص 06.

22- مالك بن نبي، شروط النهضة، مصدر سابق، 116.

23- مالك بن نبي، في مهب المعركة، مصدر سابق، ص 98.

24- مالك بن نبي، دور المسلم ورسالته، مصدر سابق، ص 22.

كل جانب، وبالخصوص في العالم الثالث... مثلا في الهند اليوم مليون عاطل عن العمل، فإذا قالوا: لنشغل المرأة، نقول لهم: فلنشغلوا أولا السواعد العاطلة عن العمل. أليس الأحرى أن نشغل الرجال؟ فإذا نفدت الأيدي العاملة فسننظر في قضية تشغيل المرأة فيما بعد".[25]

ويستدل مالك بن نبي بحديث الجهاد الذي يُستفاد منه أن تستقر النّساء في بيوتهنّ لخدمة الأولاد، والحفاظ على كرامة الأسرة. أمّا في حالات الضرورة فإنّ المرأة تجد نفسها معنيّة بالعمل آليّا دون أن تحتاج إلى دعوة من يحرّرها. ولذا رأى مالك بن نبي أنّ الوظيفة تعني استخدام المرأة في المكتب وفي المعمل، وذلك حريّ بأن يؤدّي بها إلى الاختلاط بالرّجال. وهذا ما اتّفق فيه مع عباس محمود العقاد، الذي كان يرى، أنّه من الأفضل للمرأة بقاءها في بيتها بعيدا عن الوظيفة. لكن لا مانع شرعيّ يمنعها من أن تشتغل في مختلف الوظائف التي تشتغل فيها المرأة الغربية. شرط ان تكون وظيفة شريفة. فقال في ذلك: "فإذا سيقت المرأة إلى هذه المآزق (يعني اضطرت إلى تلك الوظائف) فليس في أحكام الإسلام حائل بينها وبين عمل شريف تزاوله المرأة الغربيّة. وليست كثرة العاملات في الغرب اليوم وقلّتهن في الشّرق لمانع من موانع الأحكام الإسلاميّة. وإنّما هو الفارق بين مجتمع ومجتمع وبين طور وطور".[26]

أما مالك بن نبي فقد رأى أنه من الأفضل للمرأة أن تقتصر وظيفتها على بعض الوظائف المرتبطة بها، مثل النّسيج، أو طب النّساء، أو ما شابه ذلك من وظائف تتفق مع وضع المرأة. مضيفا أنّ توظيف المرأة بين الرّجال ينتج عنه تدني المردود العملي كمّا وكيفا.

ورأى مالك بن نبي أن دعاة تشغيل المرأة بأسباب ذات طابع انتفاعيّ مثل قولهم: "كيف نعزل المرأة عن الحياة وهي نصف المجتمع؟ هو ضرر فادح لحق بالمرأة، ويترتّب عليه إذلال لها بسبب خروجها عن طبيعتها التي كرمها الله تعالى بها. وأنّ إقحام المرأة فيما ليس من اختصاصها الطبيعي –على حسب مالك بن نبي- هو وأدٌ لها.[27] وهذا ما يختلف فيه مع قاسم أمين. الذي تأسّف على عدم دخول المرأة المسلمة عالم الشّغل مثل نظيرتها الغربيّة مما ضيّع -حسبه- نصف القدرات الإنتاجيّة للمجتمع المسلم. ولكن مالك بن نبي يرى عكس ذلك، إذ يرى أنّ المرأة إذا دخلت عالم الشّغل الرّجالي ضعفت الإنتاجيّة في

25- مالك بن نبي، ندوات ميزاب، مصدر سابق، ص 45.
26- عباس محمود العقاد، مصدر سابق، ص 70. يراجع أيضا: نور الدين عتر، مرجع سابق، ص 229.
27- مالك بن نبي، في مهب المعركة، مصدر سابق، ص 99.

الاقتصاد. وأن الأولى في العالم الثّالث امتصاص البطالة بتوظيف الفئة البطّالة وليس توظيف النّساء.

وذكر مالك بن نبي: "أنّ المجتمع الذي حرّرها (المرأة) قذف بها إلى أتون المصنع وإلى المكتب. وقال لها: عليك أن تأكلي من عرق جبينك" فتتجمّد فيها العواطف الإنسانيّة القويّة التي هي مصدرها. وصارت "صورة مشوّهة للرّجل، دون أن تبقى امرأة. وهكذا حُرم المجتمع من هذا العنصر الهامّ في بناء الأسرة، وهو العنصر الأساسي فيها".[28]

ويخلص مالك بن نبي إلى أنّ مشكلة المرأة هي مشكلة متعددة الجوانب، ولا يمكن حلّها باقتراحات أو آراء مفكر مهما كان وزنه، وإنّما لابد لها من إجماع. هذا الإجماع الذي يكون من خلال رأي يُجْمع عليه علماء الأمة من علوم: الشّريعة والنّفس والاجتماع والطّب والتّربية وغيرهم". فالقضيّة تتطّلب بالضّبط (إجماعا) لا أخصائيّين، تتطّلب حلاّ جماعيّا، لا وجهة نظر فرد، مهما كانت قيمتها".[29] وحينها يمكن القول: "إنّنا وضعنا المنهج الأسلم لحياة المرأة، ولسوف يكون هذا التّخطيط حتما في صالح المجتمع لأنّ علماءه والمفكرين فيه هم الذين وضعوه".[30]

الخاتمة:

وفي الختام، يمكن استخلاص بعض الأفكار بناء على ما ورد في العرض، نجملها في الآتي من القول:

1- أنّ مالك بن نبي مفكر حضاري حاول أن يجتهد في مواضيع اجتماعيّة على قدر كبير من الأهمية، رابطا بين الفرد والمجتمع في إطار الحاجة إلى الثقافة والفعل الحضاري. وقد اهتمّ اهتماما كبيرا بالمرأة كفرد من المجتمع المسلم، وكطرف مؤثّر ينبني عليه تطوّر الحضارة أو سقوطها في مجتمعات على حد رأيه.

2- أنّنا حاولنا قدر الإمكان عدم الاكتفاء بطرح أفكار مالك بن نبي، وإنّما حاولنا أن نربطها دوما بآراء المفكرين العرب البارزين في مثل هذه الدراسات. ووقع اختيارنا على مفكّرين اثنين هما: قاسم أمين بصفته ملقب بمحرّر المرأة، وعباس محمود العقاد المعروف بطرحه الإسلامي وفكره الناقد.

28- مالك بن نبي، شروط النهضة، مصدر سابق، ص 119.
29- مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 121.
30- نفسه، ص 118.

3- المرأة في فكر مالك بن نبي، جزء لا يتجزّأ من المجتمع المسلم. ووعيها الثّقافيّ يزيد في نباهة وترجيح عقلها. مما يؤهلها إلى لعب أدوارها الحضاريّة في مجتمعها، والعمل على ترقيته حضاريّا، في إطار ما سمّاه الفكرة الصالحة المستمدة من الفكرة الصحيحة (الوحي).

4- يرى مالك بن نبي أنّ مساواة المرأة بالرجل في كلّ شيء وفق ما طالبت به مثلا بعض المنظمات النسوية هو عين عدم المساواة واللاّ عدل. لأنه لا يُعقل المساوة بين طرفين لكل منهما صلاحياته في مجتمعه. وإنّما قمة المساواة عنده هي أن تكون النساء شقائق الرّجال وفق ما جاء به الوحي. أي لا مساوية للرجل ولا تابعة له. وإنّما طرف قائم بذاته في الآحاد الزوجية كما سمّاها التي لا يكتمل الواحد منها إلا بزوجه.

5- يرفض مالك بن نبي أن تتحول المرأة المسلمة إلى موضوع للغريزة وهي التي تحمل رسالة واعية وفكرة عميقة صالحة. ولذا فمن غير المعقول أيضا عنده أن تتحول نظرة الرجل في المجتمع المسلم تجاه المرأة إلى مجرد غيرة الذّكر على أنثاه، أو أنّ كل حركات الرجل تجاه المرأة متوقفة على جانب الغريزة فيه. وإنّما يريد أن يصفُوَ عقل المجتمع وذهنُ الإنسان المسلم نساءً ورجالا حتى تصير نظرته للمرأة خالصةً من كل شوائب الدّونيّة والجنسيّة، إلى مكانة المرأة الحقيقة المتمثلة في "النّساء شقائق الرّجال."

6- يتفق كل من مالك بن نبي وقاسم أمين في هذه النظرة (رفض النظرة الجنسية للمجتمع المسلم تجاه المرأة فيه)، وإن اختلفا في قضايا أخرى متعلقة بها مثل اشتغالها في الوظائف...

7- دعا مالك بن نبي إلى بقاء المرأة في بيتها، مختلفا في ذلك مع قاسم أمين. فمالك بن نبي يرى أن اشتغال المرأة بين الرجال ينتهي إلى ضعف الإنتاجية الاقتصادية كمّا وكيفا. ويرى أنّ الأولى هو امتصاص البطالة من فئة الرّجال والقضاء على آفاتها الفرديّة والاجتماعيّة، قبل التّفكير في توظيف النّساء. أما قاسم أمين فيرى أن عدم توظيف المرأة هو تضييع لنصف طاقات المجتمع وإمكاناته. في حين أنّ رأي عباس محمود العقاد هو الجمع بين الرأيين مع تفضيل بقاء المرأة في بيتها. لكنّه يؤكد ألا مانع شرعيّا يمنعها من العمل الشريف.

8- رفض مالك بن نبي رفضا قاطعا تولي النّساء قيادة الأمة، وأنّ ذلك يؤدي بالمجتمع إلى الإفلاس، وإلى الانهيار الاقتصادي والمعنوي والأخلاقي بظهور ما سمّاه المرأة الفارسة والرجل المخنث.

9- وفي الختام نقترح على كل الفاعلين في سياسة الدولة الجزائرية، ولا سيما في مجالات الاجتماع والاقتصاد والثّقافة، أن يأخذوا فكر مالك بن نبي مأخذ الجد وأن يكلّفوا فئة من المتخصّصين المتضلّعين (اطّلاعا وصفاء ذهن) أن يضعوا آراءه تحت مجهر التّدقيق والنّقد، وعرضها على أفكار غيره من المفكّرين بصفاء ذهن وعمق إحساس بالمسؤولية الحقّة، للخروج بأفكار وبرامج من أجل تحقيق التنمية البشرية والاقتصادية، سواء بقبول أفكاره أو دحضها وقبول أفكار الآخرين. شرط أن تسقط الحجة أمام الحجة الأقوى. على أن يكون الهدف واحدا وهو تحقيق التطور لوطننا الجزائر.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

الحديث النبوي الشريف:

الألباني محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مج 06، القسم 01، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط01، 1996. (الحديث رقم 2863).

بدران بن مسعود بن الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري، أنموذج مالك بني نبي، كتاب الأمة، ط 01، وزارة الأوقاف، قطر، 1999.

مؤنس حسين، التاريخ والمؤرخون، دار المعارف، القاهرة، 1984.

العقاد عباس محمود، المرأة في القرآن، مؤسسة هنداوي، القاهرة، مصر، 2012.

قاسم أمين، تحرير المرأة، مؤسسة هنداوي، القاهرة، 2012.

ابن نبي مالك، ندوات ميزاب، تقديم محمد بابا عمي، منشورات كتابك، الجزائر، 2014.

ابن نبي مالك، دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق، 1991.

ابن نبي مالك، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي، دار الفكر، دمشق، 1986.

ابن نبي مالك، في مهب المعركة، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر ، دمشق، 2002.

ابن نبي مالك، مجالس دمشق، دار الفكر، دمشق، 2006.

محمد إبراهيم سليم، نساء حول الرسول صلى الله عليه وسلم، مكتبة ابن سينا، القاهرة، 1990.

الغزالي محمد، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، دار الشروق، د.ت.

عتر نور الدين، ماذا عن المرأة ؟ اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق – بيروت، ط 03، 2003.